الباب الأول

من هو محمد على ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

وُلد محمد علي باشا في مدينة قولة، التابعة لمحافظة مقدونيا شمال اليونان عام ١٧٦٩، لأسرة ألبانية كان أبوه إبراهيم آغا رئيس الحرس المنوط به خفارة الطريق ببلده، وقيل أن أباه كان تاجر تبغ كان لوالده سبعة عشر ولدًا لم يعش منهم سواه، وقد مات عنه أبوه وهو صغير السن، ثم لم تلبث أمه أن ماتت فصار يتيم الأبوين وهو في الرابعة عشرة من عمره فكفله عمه طوسون، الذي مات أيضًا، فكفله حاكم قولة وصديق والده الشوربجي إسماعيل الذي أدرجه في سلك الجندية، فأبدى شجاعة وحسن نظر، فقربه الحاكم وزوجه من امرأة غنية وجميلة تدعى أمينة هانم، كانت بمثابة طالع السعد عليه، وأنجبت له إبراهيم وطوسون وإسماعيل ومن الأناث أنجبت له ابنتين وحين قررت الدولة العثمانية إرسال جيش إلى مصر لانتزاعها من أيدي الفرنسيين كان هو نائب رئيس الكتيبة الألبانية التي كان قوامها ثلاثمائة جندي، وكان رئيس الكتيبة هو ابن حاكم قولة الذي لم تكد تصل كتيبته ميناء أبو قير في مصر في ربيع عام ١٨٠١، حتى قرر أن يعود إلى بلده فأصبح هو قائد الكتيبة ووفقًا لكثير ممن عاصروه، لم يكن يجيد سوى اللغة الألبانية، وإن كان قادرًا على التحدث بالتركية .

محمد علي باشا مصر، هو مؤسس الأسرة العلوية وحاكم مصر ما بين عامي ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨، ويشيع وصفه بأنه مؤسس مصر الحديثة وهي مقولة كان هو نفسه أول من روج لها واستمرت بعده بشكل منظم وملفت استطاع أن يعتلي عرش مصر عام ١٨٠٥ بعد أن بايعه أعيان

البلاد ليكون واليًا عليها، بعد أن ثار الشعب على سلفه خورشيد باشا، ومكّنه ذكاؤه واستغلاله للظروف المحيطة به من أن يستمر في حكم مصر لكل تلك الفترة، ليكسر بذلك العادة العثمانية التي كانت لا تترك واليًا على مصر لأكثر من عامين.

خاض محمد علي في بداية فترة حكمه حربًا داخلية ضد المماليك والأنجليز إلى أن خضعت له مصر بالكليّة، ثم خاض حروبًا بالوكالة عن الدولة العلية في جزيرة العرب ضد الوهابيين وضد الثوار اليونانيين الثائرين على الحكم العثماني في المورة، كما وسع دولته جنوبًا بضم السودان وبعد ذلك تحول لمهاجمة الدولة العثمانية حيث حارب جيوشها في الشام والأناضول، وكاد يسقط الدولة العثمانية، لولا تعارض ذلك مع مصالح الدول الغربية التي أوقفت محمد علي وأرغمته على التنازل عن معظم الأراضي التي ضمها.

خلال فترة حكم محمد علي، استطاع أن ينهض بمصر عسكريًا وتعليميًا وصناعيًا وزراعيًا وتجاريًا، مما جعل منها دولة ذات ثقل في تلك الفترة، الأ أن حالتها تلك لم تستمر بسبب ضعف خلفائه وتفريطهم في ما حققه من مكاسب بالتدريج إلى أن سقطت دولته في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ م، بإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في مصر.

بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر، وانسحابها عام ١٨٠١، تحت ضغط الهجوم الأنجليزي على الثغور المصرية، الذي تواكب مع الزحف العثماني على بلاد الشام، إضافة إلى اضطراب الأوضاع في أوروبا في ذلك الوقت. شجع ذلك المماليك على العودة إلى ساحة الأحداث في مصر، الأ أنهم انقسموا إلى فريقين أحدهما إلى جانب القوات العثمانية العائدة لمصر بقيادة إبراهيم بك الكبير والأخر إلى جانب الأنجليز بقيادة محمد بك الألفي ولم يمض وقت طويل حتى انسحب الأنجليز من مصر وفق معاهدة أميان أفضى ذلك إلى فترة من الفوضى نتيجة الصراع بين العثمانيين الراغبين في أن يكون لهم سلطة فعلية لا شكلية على مصر، وعدم العودة للحالة التي كان عليها حكم مصر في أيدي المماليك، وبين المماليك الذين رأوا في ذلك سلبًا لحق أصيل من حقوقهم شمل ذلك الصراع مجموعة من المؤامرات والأغتيالأت في صفوف الطرفين، راح ضحيتها أكثر من والٍ من الولاة العثمانيين خلال هذه الفترة من الفوضى، استخدم محمد علي قواته الألبانية للوقيعة بين الطرفين، وإيجاد مكان له على مسرح الأحداث، كما أظهر محمد علي التودد إلى كبار رجالأت المصريين وعلمائهم ومجالستهم والصلاة ورائهم، وإظهار العطف والرعاية لمتاعب الشعب المصري والأمه، مما أكسبه أيضًا ود المصريين وفي مارس ١٨٠٤، تم تعيين والٍ عثماني جديد يدعى أحمد خورشيد باشا، الذي استشعر خطورة محمد علي وفرقته الألبانية فقد استطاع أن يستفيد

من الأحداث الجارية والصراع العثماني المملوكي، فتمكن من إجلاء المماليك إلى خارج القاهرة، فطلب من محمد علي التوجه إلى الصعيد لقتال المماليك، وأرسل إلى الأستانة طالبًا أن تمده بجيش من الدلاة وما ان وصل هذا الجيش حتى عاث في القاهرة فساداً مستولياً على الأموال والأمتعة ومعتدياً على الأعراض، مما أثار تذمر الشعب، وطالب زعماؤه الوالي خورشيد باشا بكبح جماح تلك القوات، الأ أنه فشل في ذلك، مما أشعل ثورة الشعب التي أدت إلى عزل الوالي، واختار زعماء الشعب بقيادة عمر مكرم -نقيب الأشراف- محمد علي ليجلس محله وفي ٩ يوليو ١٨٠٥، وأمام حكم الأمر الواقع، أصدر السلطان العثماني سليم الثالث فرمانًا سلطانيًا بعزل خورشيد باشا من ولاية مصر، وتولية محمد علي على مصر.

بعد أن بايعه أعيان الشعب في دار المحكمة ليكون واليًا على مصر في ١٧ مايو سنة ١٨٠٥م والذي أقره فيها الفرمان السلطاني الصادر في ٩ يوليو من نفس العام، كان على محمد علي يواجه الخطر الأكبر المحدق به، الأ وهو المماليك بزعامة محمد بك الألفي الذي كان المفضل لدى الأنجليز منذ أن ساندهم عندما أخرجوا الفرنسيين من مصر ولم يمض سوى ٣ أشهر حتى قرر المماليك مهاجمة القاهرة، وراسلوا بعض رؤساء الجند لينضموا إليهم عند مهاجمة المدينة علم محمد علي بما

يدبر له، فطلب من رؤساء الجند مجاراتهم واستدراجهم لدخول المدينة وفي يوم الأحتفال بوفاء النيل عام ١٨٠٥، هاجم ألف من المماليك القاهرة، ليقعوا في الفخ الذي نصبه محمد علي لهم، وأوقع بهم خسائر فادحة، مما اضطرهم للانسحاب حينئذ، استغل محمد علي الفرصة، وطاردهم حتى أجلاهم عن الجيزة، فتقهقروا إلى الصعيد الذي كان ما زال في أيديهم.

وفي أوائل عام ١٨٠٦م، أنفذ محمد علي جيشًا لمحاربة المماليك في الصعيد بقيادة حسن باشا قائد الفرقة الألبانية، الذي اشتبك مع قوات محمد بك الألفي الأكثر عددًا في الفيوم، وانهزمت قوات محمد علي مما أدى إلى انسحابها إلى جنوب الجيزة، ثم فرّت جنوبًا إلى بني سويف من أمام قوات محمد بك الألفي الزاحفة نحو الجيزة تزامن ذلك مع زحف قوات إبراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسي من أسيوط لاحتلال المنيا، التي كانت بها حامية تابعة لمحمد علي، الأ أن قوات حسن باشا دعّمت الحامية وأوقفت زحف قوات المماليك إلى المنيا.

في تلك الأثناء، صدر فرمان سلطاني بعزل محمد علي من ولاية مصر، وتوليته ولاية سلانيك أظهر محمد على الأمتثال للأمر واستعداده للرحيل، الأ أنه تحجج بأن الجند يرفضون رحيله قبل سداد الرواتب المتأخرة وفي الوقت نفسه، لجأ إلى عمر مكرم نقيب الأشراف الذي كان

له دور في توليته الحكم ليشفع له عند السلطان لإيقاف الفرمان فأرسل علماء مصر وأشرافها رسالة للسلطان، يذكرون فيها محاسن محمد علي وما كان له من يد في دحر المماليك، ويلتمسون منه إبقائه واليًا على مصر فقبلت الأستانة ذلك على أن يؤدي محمد علي ٤,٠٠٠ كيس، ويرسل ابنه إبراهيم رهينة في الأستانة إلى أن يدفع هذا الفرض.

بعد أن توجه محمد بك الألفي إلى الجيزة، لم يهاجم القاهرة إنما توجه إلى دمنهور بناءً على اتفاق سري بينه وبين حلفائه الأنجليز، ليتخذها مركزاً لتجميع قواته، فحاصرها الأ أن أهالي المدينة وحاميتها استبسلوا في الدفاع عنها وعندما بلغ محمد علي أنباء حصار دمنهور، أرسل جزءًا من جيشه لمواجهة قوات محمد بك الألفي، فوصلت إلى الرحمانية أواخر شهر يوليو من عام ١٨٠٦، واشتبكوا مع قوات الألفي بالنجيلة وهي قرية بالقرب من الرحمانية، وتعرض جيش محمد علي للمرة الثانية للهزيمة، وانسحبوا إلى منوف عاد الألفي لحصار دمنهور، الأ أنه لم يبلغ منها منالاً، فقد طال الحصار فتألّب عليه جنوده متذمرين، مما اضطره لفك الحصار والأنسحاب إلى الصعيد وسرعان ما جاءت محمد علي أنباء وفاة عثمان بك البرديسي أحد أمراء مماليك الصعيد، ثم أنباء وفاة الألفي أثناء انسحابه، فاغتبط لذلك سرعان ما جرد جيشاً وتولى قيادته لمحاربة المماليك في الصعيد استطاع جيش محمد علي أن يهزم المماليك في

أسيوط، ويجليهم عنها، واتخذ منها مقرًا لمعسكره حيث جاءته أنباء الحملة الأنجليزية.

شخصية محمد على باشا وطباعه

لم يقتصر نقد محمد علي على الحالة الأجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل ذهب أبعد من ذلك ليشمل خصاله الشخصية يذكر كوبدن، الذي كان له لقاء قصير مع الباشا، وصفاً فيقول: إنه لم ير شيئاً غير عادي أو لافت على وجه محمد علي ولم يكن هناك ما ينبئ عن عبقرية أو عظمة فكرية في شخصه وإن الوالي قد أظهر نفسه للأوربيين على أنه نبيل خلوق مجدد ومصلح، وأنا لا أطيق وصفه الأ بطاغية جشع .

بفضل روح المؤامره والدسيسه تمكن من المناوره بمهاره داخل جهاز الحكومه المعقده للامبراطوريه العثمانيه وعندما تقدم به العمر كان يفضل ان يكون محاطاً بشخصيات مثقفه كما كان يستقبل بترحاب العديد من الأوروبيين القادمين لزياره القاهره او الأسكندريه ويحسن وفادتهم ويتمتع بالحديث معهم في شئون بلادهم السياسيه والأنظمه الاقتصاديه لديهم وقد استفاد كثيراً من تلك المحادثات.

هكذا دخل إلى المسرح المصري ذلك الرجل الذي قدر له أن ينجح فيما فشل فيه نابليون، فعن طريق سلسلة الأنجازات الصارمة والحاسمة تمكن هذا الجندي الألباني غير النظامي من أن يفرض نفسه سيداً على البلاد،

وأن يكون مؤسس لمصر القرن التاسع عشر بكل النوايا والأهداف فبينما تفاخر الأمبراطور أغسطس أنه تسلم روما مدينة من الطوب وتركها مبنية من الرخام، كان في مقدور محمد على أن يقول أنه وجد مصر في حالة من الفوضى وتركها بلداً مستقراً لقد كان دكتاتوراً من الطراز الشرقي القديم امتد نفوذه بعيداً خارج حدود الدلتا فقد ضم الأماكن المقدسة في بلاد العرب، ونشر الذعر في السودان، وأحدث الخراب ببلاد اليونان، ومد سلطانه إلى حدود تركيا ذاتها، حتى أنه في ذروة انتصاراه كان ملكاً بكل صفاته لا ينقصه سوى اللقب، ويمتلك إمبراطورية توازي فى امتدادها إمبراطورية البطالمة فقبل ظهور لينين وماو بقرن كامل، حول محمد على مصر إلى الدولة المزرعة الواحدة جاعلاً من نفسه أكبر ملاك الأراضي والتاجر الأوحد وعلى طول خمسة عقود من الزمان غطت سيرته أحداث الشرق الأوسط خالقاً ما اصطلح على تسميته بالمسألة المصرية التي سببت قلقاً لحكومات أوروبا.

كيف انفرد محمد علي بالحكم

كانت سلطه محمد على بعد يوليه سنه ١٨٠٥ لا تزال مزعزعه الأركان لان صعوبات اختياره والياً كان بالرغم من الباب العالى فكان أولياء الأمور في القسطنطينيه يتحينون أول فرصه للتخلص منه فإنه وإن كان أدار الشئون المصريه بمهاره وقام بها خير قيام لا يستبعد أن

يجهر يوماً بالعصيان في وجه الباب العالى كما فعل من قبل هذا إضافة إلى ماحاق بالمماليك من المصائب في وجه الباب العالى كما فعل من قبل.

وماحاق بالمماليك من المصائب والنكبات المتتابعه جعلهم يتحدون معاً على محمد على عدوهم العنيد ثم دهمه أمر لم يكن في الحسبان وهو ورود حمله انجليزيه لغزو مصر والسبب فيها يرجع الى تحالف فرنسا مع الترك بعد توليته بعام ونصف وكانت فرنسا إذ ذاك في حرب عوان مع انجلترا فأرسلت الأخيره حمله لتغزو البلاد المصريه بإتفاق مع حليفتها روسيا مؤمله أن ترجع البلاد المصريه إلى حكم المماليك على الأقل وتقضى على أمال الترك فيها فساعد الحظ محمد على باشا وتخلص من كل هذه الأخطار التى كانت تحدق به الواحد بعد الأخر فأرضى الباب العالى وقضى على المماليك وسلطتهم وتغلب بمعونه الأهالى وحاميه رشيد على الحمله الأنجليزيه.

ثم أراد محمد على ان يجمع مالاً لإعطاء الجند مرتبهم مخافه أن يعزل كسابقيه وأراد أيضاً ان يجزل العطايا إلى أمير البحر التركي وكان راسياً بأسطول في مياه الأسكندريه يحمل أوامر بمساعده المماليك على محمد على ولما رأى انه من المحال أن يضرب ضرائب على الفلاحين لا سيما أن جميع الأراضي كانت لا تزال في قبضه المماليك جمع بعض المال من أقباط مدينه القاهره ووجد بفحص دفاتر الحساب أن الجباه منهم اختلسوا

ما لا يقل عن٤٨٠٠كيساً فأجبرهم على دفعها وبذلك أجزل العطايا إلى أمير البحر التركي وأرجعه من حيث أتى .

القضاء على المماليك :

لما وثق الباب العالى من محمد على اراد ان يستخدمه في اصلاح شؤون الدوله فأول أمر كله إياه اخضاع طائفه الوهابيين الذين كانوا يتدخلون في امر الحج واحتلوا الحرمين الشريفين وسلبوهما.

جاءت الأوامر إلى محمد على بالقضاء على الوهابية فرأى أن لا يتحرك بجيشه قبل أن يقضى على البقيه الباقيه من المماليك خاصه بعد أن ظهر له أنهم جميعاً مزمعون على قتله وكان قد رأى أولاً أن يتفق معهم وأرسل لهذا الغرض حسن باشا الأرناؤوطى يبلغهم أنه يعطيهم كل ضياعهم فأبو ذلك ففكر في قهرهم بحد السيف فحاربهم في موقعه عند اسيوط انهزم فيها جيشه الأ أن المماليك تفرقوا ثانيه في طول البلاد وعرضها في اغسطس سنه١٨١٠م ولم تمض مدة يسيرة حتى خدع شاهين بك (رئيس المماليك بعد موت الألفي) واحتال لذلك محمد على بمنحه كل الأراضي التى على ضفه النيل اليسرى من الجيزه إلى بنى سويف وفيها الفيوم.

فخضع كل المماليك اقتداء به ووقعوا على شروط الصلح في نهاية عام ١٨١٠ ورجعوا إلى القاهره واتخذوا مساكنهم في قصورهم كما كانوا من قبل.

لم يجرؤ على تسيير جندى واحد إلى بلاد العرب مادامت المماليك تهدد ولايته وتناصبه العداء وفي شهر صفر سنه ١٢٢٦هـ (فبراير سنه ١٨١١م) جمع محمد على جيشاً مؤلفاً من ٤٠٠٠ جندى في القاهره تحت قياده طوسون باشا ثانى اولاده لغزو بلاد العرب وإخضاع الوهابيين ودعا المماليك للتخلص من شرهم ودسائسهم فأسر محمد على بذلك إلى حسن باشا وصالح قوج الأرناؤوطيين فقط وفي صبيحة هذا اليوم أسر به إلى إبراهيم أغا (حارس الباب) :-

فلما سار موكب المماليك للانصراف من القلعة وعند باب العزب أغلقوا الباب وأعملوا السيف في رقاب المماليك واعمل جنود محمد على فيهم السيف قتلاً وفتكاً حتى فنى كل من كان منهم في القلعه.

لم يكن محمد علي بالشخص الذي يكتفي بولاية تحت سيطرة الخلافة العثمانية فحسب، فضلاً عن أن يشاركه في بسط النفوذ جماعات متصارعة داخل هذه الولاية فلقد أدرك منذ البداية أن عليه التخلص من كل أطراف المواجهة الداخلية؛ ليتفرغ لتنفيذ برنامجه السلطوي دون أدنى مواجهة، فإضافة للمماليك كان هناك العلماء وشيوخ الأزهر الذين

كانت لهم هيمنة روحية قوية على المصريين، وكلمة عليا لا تُرد إن أمروا بشيء، وكان لهم استقلال مادي ضمنته لهم الأوقاف؛ الأمر الذي حرّرهم من أي تبعية، ولا أدل على اتساع سلطانهم من أنهم من عيّن محمد علي والياً!.

أمام هاتين القوتين، وإرادة محمد علي فى الأنفراد بالسلطة، بدأ بالقضاء على سلطة شيوخ وعلماء الأزهر، فبدأ بإثارة الشقاق بينهم والقضاء على استقلالهم المادي بسحب الأوقاف وضمها لسلطته عام ١٨٠٨ م، وبعد أن أضعف شوكتهم نفى من بقي منهم، حتى نفى نقيب الأشراف عمر مكرم إلى دمياط، وكان صاحب الفضل الأول في تعيين محمد علي واليًا على مصر، هكذا تخلص الوالي الجديد من قطب السلطة الروحية والفكرية والثقافية، وبقي أن يتخلص من قطب السلطة العسكرية؛ لينفرد تمامًا بالسيطرة، فكانت مذبحة القلعة.

كيف تخلص محمد على من الزعامات الشعبية؟

شهدت السنوات الأولى من حكم محمد على تصاعدا لنفوذ الزعامات الشعبية التى أتت به إلى الحكم، خاصة السيد عمر مكرم الذى أصبح زعيما للمصريين بلا منازع، وفى هذا الصدد يقول مؤرخ ذلك العصر عبدالرحمن الجبرتى: ارتفع شأن السيد عمر مكرم وزاد أمره بمباشرة

الوقائع وولاية محمد على باشا، وصار بيده الحل والعقد والأمر والنهى والمرجع فى الأمور الكلية والجزئية.

ساعد على زيادة نفوذ الزعامة الشعبية فى تلك السنوات نشوة النصر على السلطان العثمانى وفرض الأرادة الشعبية عليه، التى أعادت للمصريين ثقتهم فى قدرتهم، ونجاح الزعامة الشعبية فى تبنى مطالب الناس والدفاع عنها أمام الباشا محمد على، واحتياج محمد على نفسه لمساندة الزعماء فى الأزمات التى تعرض لها فى السنوات الخمس الأولى من حكمه، كما كان محمد على يلجأ دوما للزعامة الشعبية لإقناع الناس بالضرائب الأضافية التى يفرضها لاحتواء الأزمة الاقتصادية واستيعاب تمرد الجند، كذلك كان للزعامة الشعبية دور مهم فى حسم المواجهات الكبرى التى اعترضت طريق محمد على باشا، مع الأتراك والمماليك والأنجليز لكن هل صان محمد على العهد وحفظ الجميل؟ الأجابة بالنفى؛ وكما يقول عبدالرحمن الرافعى فى كتابه عصر محمد على: من الراجح أن محمد على باشا كان يميل فى ذات نفسه إلى التخلص من الزعامة الشعبية التى أجلسته على قمة المجد، لأن هذه الزعامة كانت فى هذه السنوات الأولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تراقب أعماله مراقبة مستمرة، وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم أو تخيفهم مساوئ الحكام.

ويذكر الجبرتى أن محمد على كان يدبر تفريق جمع الشيوخ، وخذلان السيد عمر لما فى نفسه منه من عدم إنفاذ أغراضه، ومعارضته له فى غالب الأمور، ويخشى صولته، ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره، إن شاء جمعهم، وإن شاء فرقهم، وهو الذى قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الأقليم، ويرى أنه إن شاء فعل نقيض ذلك فخطط الباشا للتخلص من السيد عمر مكرم وفى نفس الوقت إضعاف المشايخ الذين كان الأنقسام قد دب بينهم منذ البداية، وقد واتته الفرصة عام ١٨٠٩، عندما اتخذ مجموعة من القرارات، منها فرض ضرائب على الأراضى المعفاة كأراضى الرزق التى ينفق ريعها على المساجد والمدارس الدينية،وأراضٍ كانت فى حوزة الملتزمين، كما كلف المسئولين فى المديريات بحصر الأوقاف والرزق ومطالبة نظارها والمستفيدين منها بتقديم مستنداتهم التى تثبت الوضع القانونى لأراضيهم أو مصادرتها، وقرر الأستيلاء على نصف ما يحصل عليه الملتزمون، وتزامن ذلك مع اعتقال ولاة الشرطة لواحد من طلاب الأزهر وسجنه فى القلعة، فبدأت حالة من التذمر فى القاهرة وخرجت المظاهرات فى الشوارع إلى الأزهر، فى الوقت الذى توالت الشكاوى من الأقاليم بسبب قرارات محمد على، فاجتمع عمر مكرم والمشايخ وقرروا كتابة عريضة للباشا بمطالب الناس وعدم الصعود للقائه بالقلعة، وتعاهدوا على ذلك، فأرسل محمد على أحد رجاله إليهم، ويروى الجبرتى

ما حدث فيقول: حضر ديوان أفندى وقال إن الباشا يسلم عليكم، ويسأل عن مطلوباتكم، فعرفوه بما سطروه إجمالاً، وبينوه له تفصيلاً، فقال ينبغى ذهابكم إليه، وتخاطبونه بما تريدون، وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم، وإنما القصد أن تلاطفوه فى الخطاب لأنه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم ولا تقبل نفسه التحكم، وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم وعدم إنفاذ الغرض، فقالوا بلسان واحد لا نذهب إليه أبدا ما دام يفعل هذه الفعال، فإن رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه كما كنا فى السابق، فإننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور.

وهنا بدأ محمد على فى التخطيط للتخلص من عمر مكرم مستعيناً ببعض المشايخ، كان أطراف المؤامرة فى البداية الشيخ محمد المهدى والشيخ الدواخلى ومحمد أفندى ناظر المهمات، ويقول الجبرتى: اجتمع الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى عند محمد أفندى ناظر المهمات، وثلاثتهم فى نفوسهم للسيد عمر ما فيها، وتناجوا مع بعضهم، ثم انتقلوا فى عصرها وتفرقوا، وحضر المهدى والدواخلى إلى السيد عمر، وأخبراه أن محمد أفندى المذكور ذكر لهم أن الباشا لم يطلب مال وقد كذب من نقل ذلك، وقال إنه يقول لا أخالف أوامر المشايخ، وعند اجتماعهم به ومواجهته يحصل المراد ورد عليهم مكرم وفند حججهم

بالمستندات، وأقسم الأ يرى محمد على الأ إذا عدل عن مشروعه فى فرض ضرائب جديدة، وقال: إذا أصر الباشا على مظالمه فإننا نكتب إلى الباب العالى، ونثير عليه الشعب، وأنزله عن كرسيه كما أجلسته عليه.

حاول المهدى والدواخلى مرة أخرى الألتفاف على مقاطعة الزعماء للباشا، وكان الشيخ الشرقاوى معهما فى المؤامرة، فصعدوا إلى القلعة للقاء الباشا، وأثناء اللقاء هاجم محمد على عمر مكرم وانتقد مواقفه، فأعطاه الشيخان الأشارة إلى استعداد كبار المشايخ للتخلى عن عمر مكرم، وقال الشيخ المهدى هو ليس الأ بنا، وإذا خلا عنا فلا يسوى بشىء، إن هو الأ صاحب حرفة، أو جابى وقف يجمع الأيراد ويصرفه على المستحقين وحاول محمد على أن يجمع بين سيف المعز وذهبه فى التعامل مع عمر مكرم، فعاد الشيخان المهدى والدواخلى إلى عمر مكرم حاملين تهديد محمد على الصريح له وللشعب بأنه ليس لديه لهم سوى السيف والأنتقام، وزرع محمد على الجواسيس حول بيت عمر مكرم لرصد تحركاته ومتابعة ما يقوم به، وفى نفس الوقت حاول شراءه بالمال، لكن عمر مكرم ثبت على موقفه وزادت الجفوة بينهما عندما رفض عمر مكرم التوقيع على كشف حساب عن نفقات ولاية مصر مرفوع للباب العالى واتهم محمد على بالكذب والتلاعب فى أموال الولاية، وبعد محاولات عديدة وافق عمر مكرم على لقاء محمد على فى

منزل الشيخ محمد السادات، لكن الباشا رفض واعتبر ذلك تجاوزاً شديداً من عمر مكرم وهنا دبر محمد على والمشايخ مؤامرة للتخلص نهائياً من عمر مكرم، ففى صباح الأربعاء ٩ أغسطس ١٨٠٩ توجه محمد على إلى منزل ابنه إبراهيم بالأزبكية واستدعى القاضى والمشايخ، للاحتكام إليهم فيما وقع بينه وبين السيد عمر مكرم، بعد أن رتب الأمر معهم على إصدار قرر بنفيه بعيداً عن القاهرة، ووجه الدعوة لعمر مكرم للحضور، وكان هناك احتمالأن لا ثالث لهما: أن يحضر ويتفق القاضى وأغلب المشايخ على إدانته بتهمة الخروج على ولى الأمر، أو يرفض فيعتبر رفضه خروجاً وعصياناً، ورفض عمر مكرم المثول فى المجلس الذى كان يعرف قراره المعد مسبقاً، وبالفعل تقرر عزله ونفيه إلى دمياط، وتعيين الشيخ السادات نقيبا للأشراف أما الشيخ المهدى فأسرع يطلب المكافأة، وكانت له، فأخذ وظائف عمر مكرم فى نظر أوقاف الأمام الشافعى ووقف سنان باشا ببولاق، وحصل على ما كان متأخراً له من راتبه من الغلال نقداً وعيناً لمدة ٤ سنوات دفعها محمد على نقداً من خزانة الدولة ولم يكتف كبار المشايخ بهذا بل سعوا لتشويه سمعة عمر مكرم وإعداد عريضة يتهمونه فيها باتهامات باطلة أخذوا يجمعون عليها التوقيعات من مشايخ الأزهر، لكن أغلبهم رفضوا التوقيع، فخفف المشايخ الكبار لهجة العريضة، ومع ذلك استمرت مقاطعة التوقيع عليها، وتصدى لها الشيخ الطحطاوى مفتى الحنفية، فكان نصيبه العزل والأبعاد

فكانت النتيجة سقوط مكانة المشايخ فى نظر الناس وفى نظر محمد على أيضاً، ويقول الرافعى: لم يكن المهدى والدواخلى والشرقاوى فى موقفهم عاملين على هدم السيد عمر فحسب، بل كانوا فى الواقع يهدمون أنفسهم وزملاءهم، وكل عضو فى تلك الجماعة الشعبية التى قامت بدور خطير فى تاريخ مصر القومى وأحكم محمد على سيطرته على البلاد، وبعد عشر سنوات سمح لعمر مكرم بالعودة من المنفى والذهاب للحج، وقال محمد على: أنا لم أتركه فى الغربة هذه المدة الأ خوفاً من الفتنة، والأن لم يبق شيئاً من ذلك، فإنه أبى، وبينى وبينه ما لا أنساه من المحبة والمعروف ولم تمض ثلاث سنوات الأ وعاد عمر مكرم إلى المنفى مرة أخرى، لكن إلى طنطا هذه المرة، ففى سنة ١٨٢٢ خرجت مظاهرة صاخبة فى القاهرة بسبب فرض محمد على لضرائب جديدة على منازل العاصمة، وظهرت من بين مشايخ الأزهر قيادة شعبية جديدة متمثلة فى الشيخ العروسى، فخشى الباشا من وجود عمر مكرم فى القاهرة وقرر نفيه مرة أخرى وهكذا قضى قائد العسكر الألبان على الزعامة الشعبية التى جاءت به إلى الحكم على الرغم من المساعدات التي قدمتها له بقيادة نقيب الأشراف عمر مكرم بالمناداة به واليًا، ثم التشفع له عند السلطان لإبقائه واليًا على مصر.